من تراب الطريق! (١٥٩)

الموت شرفاً (*)

تجوع الشريفة ولا تأكل بثدييها، عبارة تجرى فيما بيننا مجرى الأمثال احتراما لكل شريفة لا تسترخص شرفها، ولا تفرط فى عرضها مهما كانت حاجتها واحتياجها وفقرها وجوعها .. راودتنى هذه المعانى وأنا أقرأ قصة شابة مدرسة فى كلية طب الأسنان ماتت قتيلة دفاعاً عن شرفها ألا يمس وعن عرضها ألا يخوض فيه خائض، ركبه جنون شهوة عمياء أراد بها أن يغتال بالقوة والعنف ما ليس له، وأن يدنس عرضاً ملك صاحبته ليس له عليه حق ولا سلطان !

صرفنى ما عانته القتيلة الشريفة فى صراعها ذوداً عن شرفها، عن جنوح هذا الجانح الشرير الذى ذهب عقله ومات ضميره .. أتصورها لحظة بلحظة وهى محوطة بشبح الموت، تتلقى الضربات والطعنات، تمزق جسدها وتعبث بأحشائها وتفجر دماءها وتوجع قلبها وكل ذرة فى كيانها، لا عليها لتتقى هذه الطعنات الموجعة الدامية إلاّ أن تستسلم ولها عذر فى هذه القوة الغاشمة الباطشة الشريرة التى لا تملك قدرة ولا أدوات ولا وسائل مقاومتها .. فهى إن استسلمت مغلوبة على أمرها، لا اختيار ولا إرادة لها .. اختيارها معدوم، وإرادتها موءودة، ولا حيلة لها .. ومع ذلك أبت إلاّ أن تلوذ بقوة تكوينها النفسى الإرادى، وبمتانة معتقدها أن الشرف لا تفريط فيه، وأن العرض دونه الموت. فالموت أهون من عرض مبذول أو منتهك!

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١٠

هذه فتاة جديرة بأن نقيم لها تمثالا .. رأت الموت مطلا قادما آتيا مزهقاً لروحها لا محالة ! واجهته واعية بمقدمه المؤكد غير مترددة ولا هيابة.ناظرت الجنون الذى ركب الذئب ولم يعد أمامه أى فرصة للتراجع! هو إذن لن يتراجع، وسلاحه نافذ بطعناته، متوحش فى ضرباته، يمزق أحشاءها ويودى بها إلى الموت المحقق . ومع ذلك لم تتراجع، ولم تهن أو تضعف أو تدعه يلغ فى عرضها أو ينال بغيته المجنونة منها !

لهفى على هذه الفتاة فى اللحظات التى استقبلت فيها شبح الموت القادم، وآلام الطعنات الممزقة، وضربات الوحش المجنون، بينما لا منجد ولا مغيث ولا مهرب ولا مفر إلاّ أن تستسلم وتسلم نفسها، ولكنها لم تفعل، وقدمت مثالاً رائعاً لإرادة تنحنى أمامها الجبال الشوامخ احتراما وإعجابا وتقديرا.

ماذا أقول لكم من بعد ؟! هل راجعنا العشوائيات التى أصابت حياتنا فى كل شىء. لم تقتصر على عشوائيات المبانى وتبوير الأراضى، وإنما ضربت حياتنا فى كل شىء. هل تأمل أحد فى حراس العقارات وعشوائية تشغيلهم والتعامل معهم ؟! هل تأمل أحد فى عشوائية الأمان الذى نعطيه لمن لا يستحقونه ؟! هذه بالذات عشوائية مشتركة فى الخاص والعام، ضربت حياتنا الخاصة فيمن نعطيهم ثقة بلا ضوابط ولا معايير، وضربت حياتنا فى الشأن العام الذى بات بدوره ضحية عشوائية اختيارات تفتقد الرشد مثلما تفتقد مقومات الثقة والأمان !!!